أزمة صياغة تاريخ الثقافة العربية

و إشكاليات تصنيف الحضارة العربية

مما لا شك فيه ان الثقافة العربية تمر حالياً بأزمة خطيرة من وجهة نظر مفهوم تاريخ الحضارات ومجري التاريخ من المنطلق الإعم. ويمكننا تلخيص هذه الأزمة في " الإتجاه نحو التشكل الكاذب".

فكما هو متعارف عليه في إرث التاريخ الإنساني أن الغلبة الثقافية تتبع الغلبة السياسية " الحربية" و ذلك بغية تحقيق الهدف الاساسي من عملية الدخول في الصراع سواء أكان إقتصادياً ، أو دينياً، أو حتي مجرد تحقيق لنازع الإستعلاء العرقي Ethnocentrism

ومهما يكن سبب الصراع؛ علي حتمية في مجري التاريخ الإنساني؛ فإن فرض ثقافة المنتصر علي الأقاليم المفتوحة من شأنة أن يمهد لإستقرار هذه المناطق أو الدول ويفرض إيجاد إجيال مستقبلية تتكيف والوضع الجديد مما يعمل علي تحقيق الأهداف المرجوة من الدخول في هذا الصراع.

ولكن عملية فرض الثقافة الخاصة بالمنتصر علي الأقاليم المفتوحة هو عملية قصدية قد لا تأتي ثمارها بالدرجة التي يتمناها المنتصر كما هو الحال بين الثقافة العثمانية والثقافة العربية، وهذا إيضاً يتناقض وإحدى الخصائص الأساسية لمفهوم تطور الثقافة عبر مجري التاريخ والتي تتمثل في كون أن عملية التبدل المستمر وتطور الثقافة يشتمل علي الإتجاهين : القصدي واللا قصدي.

فالثقافة كنظام كليّ Holistic System يتكون من عوامل متعددة لا تخضع لقانون معين أو عدة قوانين تحكم مجراها و بصورة تمكّن من التنبؤ بمصيرها ولكنها تخضع للظروف المحيطة بها شأنها شأن أحداث التاريخ الإنساني، وبالتالي فإن التحليل السيميائي للعوامل المؤثرة علي تشكل أو تبدل أو تطور

ثقافة ما يصبح هو المنهج الوحيد الممكن إتباعه لمحاولة فهم توجهات(فلسفة) هذه الثقافة.

فالحضارة الغربية وإن تعرضت لنكبات أدت لإنتكاس موروثها الثقافي إلا أنها عادت ونهضت من جديد وبصورة فرضت ثقافتها إبتداء من عصر النهضة وحتي نهاية القرن التاسع عشر، وهي نهضة تميزت بتطورات في كافة المجالات وبزخم كمي ونوعي عمل علي إطفاء موروثات العصور الوسطي وما قبلها. فالحضارة الغربية وإن قامت علي وافد الحضارة العربية أنذاك فإن ذلك لا ينتقص من درجة ثراءها وتجددها وذلك لأن البناء علي إكتشافات الآخرين يظل أحد الصفات الأساسية لمفهوم الثقافة وعملية التعلّم الإجتماعي وإن تمت من خلال حضارة مختلفة.

أما ظاهرة التشكل الكاذب فهي ظاهرة ثقافية في المقام الأول، إذ أن لكل مجتمع من مجتمعات أية حضارة ثقافتها الأصيلة الخاصة بها ولكن بفعل أحداث التاريخ أو عوامل البيئة فقد تتعرض هذه المجتمعات لتأثيرات عظيمة تؤدي إلي إعادة صياغة ملامحها في قالب حضارة أخرى غير تلك التي ظهرت وتشكّلت فيها. وبالنظر إلي إشكالية التدوين المنهاجي للتاريخ فإننا نجد أن هذا من شأنه أن يقود علماء الأنثروبولوجيا مثلاً إلي تناول ثقافة جنس من الأجناس المكونه لحضارة ما علي صورتها التي ظهرت عليها في مرحلة إتجاه هذه الحضارة نحو السيطرة Domination علي ثقافة الحضارات المعاصرة لها، الشئ الذي يؤدي بدوره إلي مزيدٍ من الخلل في تحليل مجري تشكل وتطور هذه الثقافة بالإضافة إلي إشكالية عملية التأريخ المنهاجي.

وعلي ضوء ما سبق، فإن محاولة تحديد مجري و تطور ثقافة العالم العربي اليوم تقتضي إعادة النظر إلي تاريخ التحولات الكبري في مجري حضارتها كما يجدر التنبه إلي إمكانية حدوث ظاهرة التشكل الكاذب ليس فقط في الثقافة الإسلامية ولكن في ثقافة الحضارة غربية نفسها وذلك بوصف عواملها تدخل كمكونات في نظام ثقافة الحضارة الإسلامية.

فإذا ما حاولنا تتبع مجري التاريخ السيميائي للثقافة العربية الإسلامية بدءاً من العالم العربي اليوم وإتجاهاً نحو بدايات ظهور الحضارة الإسلامية فإننا نجد ان الثقافة العربية قد مرت بمرحلة تشكل كاذب نتيجة لسيطرة الدولة العثمانية علي العالم العربي ومحاولتها فرض لغتها وثقافتها عليه وبالتالي تشكيلها في قالب حضاري غير الذي نشأت وترعرعت فيه. أما موروث الثقافة الإسلامية بوصف الإسلام العامل الأقوي و الأحدث تأثيراً علي الحضارة العربية مقارنة باليهودية والمسيحية؛ فإن تشكل الثقافة الإسلامية وفق قالب الدولة العثمانية أدي بدوره إلي إحداث تغييرات في بنية الثقافة العربية الإسلامية الشئ الذي أدي بدوره إلي ظهور حركات التجديد الديني في التاريخ الحديث مثل السلفية والوهابية وغيرها. كما أدى ذلك أيضاً إلي ظهور النازع العربي في الثقافة الإسلامية وذلك كرد فعل علي التغيرات الثقافية العثمانية علي العالم العربي الإسلامي و ثقافته.

وبالتالي فإن التاريخ الحديث للعالم العربي الإسلامي يحوي مرحلة (إنقطاع ثقافي) عن جذوره الحضارية، وهي تمثل عاملاً مهماً في أية محاولة لتحليل واقع موروث ووافد الثقافة العربية الإسلامية اليوم يغفل عنها الكثيرون. فالثقافة الإسلامية العربية لا تتصل مباشرة بالحضارة الإسلامية العربية منذ بداية نشأتها كما هو الحال مع الثقافة الغربية التي مرت فقط بمراحل تحولات وتطورات عظيمة ولكنها لم تتعرض أبداً لمرحلة إنقطاع ثقافي بين واقعها المعاصر وجذورها الحضارية منذ ظهور المسيحية، والسبب في ذلك يعود إلي أن السيطرة السياسية للحضارة الإسلامية في أوج إزدهارها إقتصر علي الإندلس ولم يتمكن من التوغل شمالاً أو غرباً وبالتالي إحتفظت الشعوب الأوربية بسيادتها السياسية (الثقافية) ودخلت فقط في عملية تأثير وتأثر مع الحضارة الإسلامية.

إن أية محاولة للحديث عن إمكانية تصنيف الثقافة العربية الحالية تصطدم بإشكاليتين أساسيتين تتمثلان في:

تصنيف الشكل السياسي لعالم العربي حالياً والمتشكل بداية من العقد الثالث

من القرن العشرين؛ وذلك من ناحية إعتباره كحضارة أم مدنية.

تزايد قوة وزخم العوامل المؤثرة علي سرعة تغير وتشكل ملامح الثقافة عالمياً ومن ضمنها الثقافة العربية بموروثاتها وذلك نتيجة لتقريب الهوة الجغرافية و الزمانية بين مختلف المجتمعات المدنية في العالم.

اما عن دور وأهمية عملية تصنيف العالم العربي من ناحية كونه في مرحلة الحضارة أم المدنية فترجع إلي خاصية ديناميكية الثقافة، فهي شانها شأن الدين والإقتصاد دائمة التغيير ومرتبطة بهما أيما إرتباط. أيضاً تكتسب مسألة تناول الثقافة العربية الإسلامية كنظام تدخل مكوناته في علاقة تبادلية Interrelated بين موروثها ووافدها وموروث الثقافة الغربية ووافدها.

فبالتالي وحسب تعريف مصطلح الثقافة اليوم ؛ فإن وافد الثقافة العربية اليوم أي الثقافة الغربية بالإضافة إلي ثقافات الأمم الأخري ليس هو الوحيد الذي يتوّجب حصرة و لكن موروث الثقافة العربية اليوم أيضاً يجب تحري الدقة في تقفي أثره بالإضافة إلي العوامل الأخري مثل التشكل الكاذب، والإنقطاع الثقافي، والتحول نحو المدنية.

أما محاولة تصنيف المرحلة الحالية للعالم العربي اليوم؛ أي كحضارة أم مدنية أم في طور التحول؛ فهي عملية تواجة عدة إشكاليات، فالعامل الحاسم في تحول مجتمعات الحضارة نحو المدنية لا يكمن في مظاهر الترف المادي أو حتي التطور العلمي او التكنولوجي، ولكن يكمن كما أسلفنا في التبدل الإجتماعي في مورفيلوجيا طبقات المجتمع وإنحسار أواصر الدم والأرض مدفوعاً بقوة تأثير تطور عوامل الدين والإقتصاد، ودور المعرفة الإنسانية في التأثير الحقيقي علي الواقع المعاش للحياة اليومية للمجتمعات. وبالتالي فإن محاولة تعميم هذا التصنيف علي المجتمعات العربية اليوم بناءاً علي شكل نظمها السياسية الإجتماعية فإننا نميل إلي تصنيف العالم العربي في مرحلة ما بين الحضارة المدنية مع ضبابية إية إمكانية للتنبؤ بإمكانية حدوث تحول كامل نحو المدنية. فالنظام السياسي لا يحدد بمفرده عملية التصنيف إلي حضارة ومدنية ولكن

رمزية إستمرار هذه النظم التي تشير إلي تقبل ثقافة مجتمعاتها لها بوصفها موروثات أصيلة سواءاً كانت ذات جذور حضارية أو دينية، كذلك فإن ما يتبع هذه النظم السياسية من مظاهر إقتصادية ودينية هو ما يشكل أساس تأثير النظم السياسية علي ثقافة العالم العربي.

فإذا ما تناولنا هذا الواقع اليوم مقارنة بالثقافة الغربية أو حتي ثقافة الشرق وخاصة فيما يتعلق بنظم الحكم نجد أن المجتمعات العربية لا تزال في طور الحضارة وإن إختلف مدلول المصطلح عمّا هو شائع، فعلي الرغم من إختلاف المسميات من ملكية Monarchy إلي ملكية دستورية Constitutional Monarchy إلي إمارات أو حتي جمهورية Republic فإن المحصلة النهائية هي إنعدام تداول السلطة وسيادة ثقافة تقبّل هذا الشكل، وذلك وإن تزايد أعداد المثقفين الذين ينادون بالتحول الديمقراطي إلا أن الغالبية العظمي من المجتمعات العربية وثقافتها لا تزال تخضع لمبدأ الملكية وإن إختلفت المسميات. أما في الثقافة الغربية فإن مبدأ تداول السلطة هو الغالب وإن وجدت الملكية كموروث رمزي حضاري. فالحضارة العربية الإسلامية لم تخضع لشكل تداول السلطة؛ وهو يختلف عن المفهوم الحالي؛ إلا في مرحلة الخلافة الراشدة بعد وفاة النبي صلي الله علية وسلم وما لبثت أن عادت إلي شكل توارث السلطة بداية من الدولة الأموية وما تلاها، و لعل أكبر دليل علي ذلك في واقعنا اليوم هو ما يحدث في العراق وأزمة تشكيل الحكومة وفق نظام الديموقراطية البرلمانية Parliamentary Democracy أو ما يحدث في لبنان؛ مع الإقرار طبعاً بوجود ظروف وعوامل خاصة في كلاً منهما؛ ولكن المقصود توضيح أن مبدأ التداول السلمي للسلطة وفق ديمقراطية حقيقة لا يزال دخيلاً علي الثقافة العربية الإسلامية. وليس الهدف هنا تناول مراحل وأشكال النظم السياسية في الحضارة والعالم العربي الإسلامي بقدر ما يهمنا توضيح أثر هذا العامل في تشكيل الثقافة أولاً وتصنيف المجتمعات من ناحية طوريّ الحضارة والمدنية.

وعليه فإن المجتمعات العربية الإسلامية وإن تبدّت بمظاهر المدنية اليوم بفعل

التكنولوجيا والإتصالات إلا أنها لا تزال تعيش في طور الحضارة وفق المفهوم الذي أسلفناه، الشئ الذي يفسر الكثير من التناقضات في واقع الثقافة العربية اليوم من كونها لا تملك مقومات تشكيل مدنية خاصة بها وتزايد تأثرها بمظاهر الثقافة الغربية بصورة لا تتناسب ودرجة تأثيرها في الثقافة الغربية.